



مجلة الدراسات الإيرانية
Journal for Iranian Studies

مجلة الدراسات الإيرانية

دراسات وأبحاث علمية متخصصة

مجلة علمية ربع سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

السنة الثانية - العدد الخامس - ديسمبر 2017

تصدر عن



مركز الخليج العربي
لِلدراستات الإيرانية
AGCIS

www.arabiangcis.org

التوظيف الإيراني للفرسية دور اللغة في تصدير الثقافة والثورة

د. أحمد موسى

أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بالمغرب وباحث في الدراسات الإيرانية

الثورة في إيران هي أول ثورة طائفية في العصر الحديث حملت على عاتقها مسؤولية حفظ هويتها الجديدة داخلياً، ونقل ثقافتها إلى الآخر الأجنبي، ونشر الإسلام الثوري والتبشير به خارجياً، وبخاصة في الدول ذات المكون الشيعي أو الدول الفقيرة أو الفاقدة للسلطة المركزية القوية. وقد تطرق الخطاب الجديد المنبثق من عباءة رجل الدين الإيراني إلى تعريف المفاهيم الأساسية في مجال السياسة الداخلية والخارجية لإيران، مثل الثقافة والقيم الثورية، والهوية الوطنية، والمصالح والأهداف القومية... إلخ. وحدد معايير متفاوتة لـ«الذاتي» و«الآخر» في السياقين القومي والدولي. من ناحية أخرى، أبدى هذا الخطاب تحدياً للخطاب الحاكم دولياً، وشكل تهديداً للنظام السائد على العلاقات الدولية، كما عبأ مراكز المقاومة المتعددة في مقابل قوة الهيمنة الدولية.



لم يكتفِ النظام السياسي الجديد بإرخاء ظلال خطاب الثورة على جميع مناحي الحياة الخاصة والعامة للإيرانيين، بل عمل على توسيع دائرته ليتجاوز الحدود الجغرافية لبلاده ويرسخ أسس خطابه في مناطق أخرى من العالم.

وهكذا باتت فكرة «تصدير الثورة الإيرانية وثقافتها» بمثابة هدف واستراتيجية، وأيضاً «رسالة الثورة وواجبها»، وأحاطت نفسها بهالة من القيم. لكن هذه الثورة لم تكن لتنتج في نشر رسالتها في العالم الخارجي من دون اعتمادها على لغة تكون بمثابة وعاء ينقل فكرها ومبادئها.

يحاول هذا البحث تحليل ودراسة العلاقة بين اللغة الفارسية كميّون من مكونات الهوية الثقافية الإيرانية، وبين أصل «تصدير الثورة والثقافة» كهدف من الأهداف التي تأسست عليها الجمهورية الإسلامية في إيران ونص عليها الدستور الإيراني.

إنّ قيام الثورة في إيران يُعدّ نقطة تحوّل في التركيز على بُعد الإقليمية مع توجّه عقائديّ طبع السياسة الخارجية الإيرانية. ولما كانت ماهية الثورة في إيران تقوم على مرتكز العقيدة الشيعية، بات ارتباط إيران بقضايا العالمين العربي والإسلامي وثيقاً، وأصبح التركيز على القضايا الإقليمية من سمات القوة في السياسة الخارجية الإيرانية، ما دفع إيران «الشيعية» إلى توجيه اهتمامها إلى قضايا الشرق الأوسط وفتح مواجهات مع الدول العربية المنافسة لإيران.

أولاً: الثقافة والهوية والثورة من منظور إيرانيّ

قبل طرح تعاريف الإيرانيين للثقافة ومفاهيمها، تجدر الإشارة إلى تعريف هذا المصطلح كما ورد عند بعض الباحثين الغربيين والعرب، فالثقافة هي مجموعة من المكتسبات المادية وغير المادية التي حصّلها الإنسان طوال حياته الاجتماعية⁽¹⁾. وينبني تعريف تايلر للثقافة على البعد الاكتسابي، فالثقافة مجموعة معقّدة تشتمل على المعارف والمعتقدات والفنون والصناعات والأخلاق والقوانين والتقاليد وكل العادات والسلوك والضوابط التي يتلقاها الشخص من مجتمعه كعضو ينتمي إليه، وعليه واجبات والتزامات تجاه ذلك المجتمع». ويذهب البروفيسور فيكتور الكك إلى أن الثقافة هي عصارّة الحضارة في معارفها وممارسات أهلها، وهي ذات خصوصية وفرادة بالنسبة إلى حضارة كل شعب (...). والثقافة من جهة أخرى هي القوة المحركة للحضارة، الدافعة بها نحو التطوّر⁽²⁾.

أما إيرانيّاً، فهناك بعض المفاهيم لثلة من الباحثين المتخصصين يمكن التطرّق إليها قبل تناول التعريف الذي يتبناه مؤسسو نظام ولاية الفقيه في إيران. يرى باقر ساروخاني

أن «لثقافة مفهومًا شاملاً يشمل كل النماذج التي يتم تعلّمها وتلقينها في المجتمع، والتي تنتقل بواسطة المُثُل. فالثقافة، باعتبارها الجانب المميّز للإنسان عن الكائنات الأخرى، تشتمل على جميع مكتسبات المجتمع أو الفئة، ومنها اللغة والفنون والصناعات والحقوق والعلم والدين والأخلاق والعادات والتقاليد، وكذلك الوسائل المادية»⁽³⁾.

ويرى الباحث جواد منصور أن الثقافة مجموعة معقّدة من المعلومات والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والعادات والتقاليد والرغبات، فضلاً عن عادات مكتسبة يحصّلها المرء في حال انخراطه في المجتمع⁽⁴⁾. وتعرفها نورا قيصري بأنها مجموعة من الأدبيات والتقاليد والعادات وطرق العيش التي تجعل حياة الفرد والجماعة ذات هدف ولها معنى ومُتّجه⁽⁵⁾. ويرى الدكتور داوري أردكاني أن الثقافة أحد العوامل الثلاثة المشكّلة للهويّة الوطنية⁽⁶⁾.

1- مفهوم الثقافة عند الخميني:

الثقافة في نظر الخميني ليست سوى أفكار وسلوكيات تربي عليها الفرد والمجتمع، لذلك، فهي -من وجهة نظره- يمكن أن تكون منتجة للهويّة ومُؤسّسة للتربية والأخلاق، ومحورية في تربية الفكر. فهو يقول في هذا الصدد: «... هم [الغرب] يريدون لنا أن نكون تابعين، وما يجلبونه لنا من أشياء يستدعي التبعية. هم لا يبتغون لنا الاستقلال الثقافي والفكري»⁽⁷⁾.

وللثقافة حدود مشخصة في فكر الخميني يمكن تلخيصها في جمل مختصرة مثل «التقدم المادي ليس ثقافة»، و«الصناعة ليست ثقافة». ولتأكيد ذلك يصرح قائلاً: «نحن الآن لسنا بحاجة إلى الخارج في ما يخص الثقافة وأكثر العلوم الاجتماعية، وإذا كنا لا نضاهيه [الغرب] في الصناعة، فلا ينبغي أن نخسر أنفسنا ونعترف له بالتقدم ونعلن احتياجنا إليه، كلاً، الأمر ليس كذلك...»⁽⁸⁾.

2- مفهوم الثقافة عند علي خامنئي:

يحدّد علي خامنئي، مرشد الثورة، معالم الثقافة في ثلاثة مجالات: المجال الأول: مجال السياسات الكبرى للدولة، أي إن الثقافة، باعتبارها مُوجّهة لسياسات الدولة الكبرى، لها دور بارز حتى في القرارات الاقتصادية والسياسية والإدارية، وأيضاً في عملية الإنتاج، فهو يشبّه الثقافة بالروح التي تسري في جسم أنشطة الدولة وفعاليتها كلها، ويعدها بوصلة توجّه سياسات الدولة الكبرى.

المجال الثاني: مجال تشكيل الوعي والسلوك العام للمجتمع، فهو يرى أن حركة

المجتمع تتم وفقاً لثقافته. وهنا يضع خامنئي يده على النواقص التي تعتري الثقافة، كما يعرفها هو، في إيران، ويحصرها في عدة قضايا، أولها الانضباط، إذ يرى أن المجتمع الإيراني في حاجة ماسّة إلى الانضباط، ثم الثقة بالنفس والاعتزاز القومي، بمعنى الافتخار بالهوية الإيرانية، أي الافتخار بالأصل الإيراني، فقول الشاعر الإيراني المعاصر، سهراب سبهري⁽⁹⁾ في إحدى مقطوعاته الشعرية الشهيرة: «اهل كاشانم روزكارم بد نيست»⁽¹⁰⁾ هو «اعتزاز وافتخار بالانتماء إلى إيران، وهو ما نحتاج إليه، نحن الإيرانيين»، على حدّ تعبير خامنئي. لكنه يستدرك، ويعدّ أن هذه الهوية لا تتنافى مع تيارات القومية، فهو يعدّ الافتخار بالانتماء إلى إيران وطنية إيجابية يحتاج إليها الشعب الإيراني، ثم قضية التشبث بالقانون والاحتكام إليه، وتغليب الغيرة الوطنية، ثم التدينّ والتمسك بالمعتقد، بمعناه العام، وقضايا أخرى من قبيل ثقافة الزواج وثقافة السياقة والطرق وثقافة العائلة وثقافة الإدارة وثقافة اللباس والهندام، وأيضاً ثقافة الاستهلاك تعدّ هامة في نظر خامنئي.

المجال الثالث: السياسات العامة في التربية والتعليم والبحث العلمي والصحة. بهذا الخصوص، يعتقد خامنئي أن أجهزة الدولة مسؤولة عن وضع سياسات هذه القطاعات الحساسة وأخذها من المركز⁽¹¹⁾.

مسألة الهوية أيضاً من المسائل التي حظيت بالاهتمام طيلة أدوار طرح النظريات الاجتماعية الجديدة، سواء في القديم أو لدى المنظرين الأوائل، أو في فترة المفكرين المعاصرين، وطرح عديد من النظريات الاجتماعية حولها غطت فترات من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، وصولاً إلى النظريات الحديثة.

3- مفهوم الهوية وأنواعها في إيران:

الهوية هي مجموعة من الخصوصيات التي تميّز فرداً أو جماعة عن فرد آخر أو جماعة أخرى. تقسم الهوية في الغالب إلى قسمين: هوية فردية، وهوية جماعية. وهما متلازمتان ولا ينفصل بعضهما عن بعض. وتعدّ الهوية الجماعية حجر الأساس للهوية الوطنية أو القومية. ويحصر الخبراء وأهل الاختصاص العوامل المكوّنة للهوية الفردية في العائلة والطبقة الاجتماعية وجماعة الأصحاب، وأيضاً المعارف التي يتلقاها الفرد في حياته. أما الهوية الاجتماعية فتنشأ من مكانة الفرد في المجتمع وتعلقه به. وتتشكل الهوية الجماعية تحت تأثير بنية السلطة والنظام الثقافي الرسمي، لذا فالهوية الجماعية ذات ماهية مركبة، وتتخذ في المجتمع الإيراني شكلاً متعدّد الأبعاد.

المهم في هذا البحث عرض وجهات النظر الإيرانية أكثر من غيرها. فيرى الدكتور

جعفر رباني أن الهوية الوطنية لدولة ما هي عبارة عن حزمة المعتقدات والعادات والتقاليد المقبولة وتصورات ذلك المجتمع على امتداد عصور طويلة وقرون متتالية. لذلك فالهوية الوطنية لأي أمة لها جذور في تاريخ وثقافة ذلك المجتمع⁽¹²⁾.

ويرى صنيع إجلال أن الهوية الوطنية تركيب من أبعاد مختلفة، منها: البعد الاجتماعي والبعد التاريخي والبعد الجغرافي والبعد السياسي والبعد الثقافي والبعد اللغوي⁽¹³⁾. وأضاف بعض الباحثين بعداً آخر وهو البعد الديني⁽¹⁴⁾.

لعلنا نرجع بداية الاهتمام بموضوع الهوية الوطنية في إيران إلى القرنين الماضيين، أي من بداية العصر القاجاري وبخاصة في عهد الثورة الدستورية بفعل تأثيرات النزعة الوطنية الأوروبية (Nationalisme)، لكن هذه الهوية ستصل إلى أوجها خلال عهد الثورة الإيرانية التي اتخذت طابعاً إسلامياً في ما بعد.

لقد أضيفت على الهوية الإيرانية تفاسير عدة، تنوعت واختلفت باختلاف الأزمنة وبحسب الظروف الاقتصادية والسياسية الحاكمة على المجتمع الإيراني من الداخل، والفضاء الخارجي السائد، وعلى هذا الأساس عدت مرةً وطنية متعصبة، ومرةً وسيلة سياسية في أيدي الحكام، ومرةً عودة إلى التاريخ الإيراني القديم المناهض للعرب والإسلام، وتلبست حيناً آخر بلبوس الطائفية والتشيع. هذا المكوّن الأخير، أي الطائفية، كان بارزاً في سياسة إيران الخارجية، حتى قبل قيام الثورة الإيرانية، إذ تذهب بعض الآراء إلى أن النظام السابق في إيران، رغم عدم إيمانه باستخدام الوسائل والأدوات العقائدية في ديناميكية السياسة الإيرانية، قد استخدم أداة التشيع في سبيل بسط نفوذه في المنطقة⁽¹⁵⁾. لكن في الواقع، ومع قيام النظام الإيراني الجديد بعد ثورة 1979م، غلب على الهوية الإيرانية الرسمية الطابع الطائفي الشيعي، وتكرّس رسمياً في الوثيقة الدستورية من خلال نصّ الدستور الإيراني، وهو الوحيد في العالم -بالمناسبة- الذي ينصّ على «مذهب الدولة» تحديداً بعد النص على دينها، بل إن المذهب في الدستور الإيراني يصل إلى مرتبة أكثر قداسة من الدين نفسه، حسب نصوص الدستور التي تعطي لـ«المذهب الجعفري» فوق ما للإسلام نفسه⁽¹⁶⁾. وبعد سقوط نظام صدام حسين في العراق، وبالتزامن مع دخول عنصر التشيع في إنتاج السلطة والسياسة فيه، أقحمت إيران، بجديّة أكثر، هذا المكوّن في سياستها الخارجية، مما أتاح لها الحضور الفعّال في قضايا بعض البلدان العربية التي فقدت زمام الأمر لصالح سلطة الولي الفقيه في طهران. وأقصد هنا العراق ولبنان (جزئياً) وسوريا، وكاد اليمن أن يكون لقمة سائغة لولا حزم المملكة العربية السعودية وحلفائها في

لجم أطماع إيران في هذا البلد العربي الأصيل.

إنَّ مكوّن التشيّع في الهويّة الوطنية الإيرانية قد شكّل سلطة وطنية تستخدم ضمن إطار تقوية الاهتمام والحضور الإقليمي، ليس فقط في سبيل نشر المذهب الشيعي وترسيخه في بيئات عربية مستجيبة أو قابلة للخضوع أو ضعيفة ومهلهلة، بل -وكما أشار إلى ذلك مؤخراً علي خامنئي في تصريح نقله عنه قاسم سليمانى، ضارباً عرض الحائط القيم والمبادئ التي تحدثت عنها الثورة- خدمة للمصالح الإيرانية العليا في المنطقة، بغضّ النظر عن طبيعة الأنظمة التي تدعمها طهران.

ويمكن أن نحدّد أنواع الهويّة الجماعية في إيران على النحو الآتي:

أ. الهويّة القومية أو الوطنية: تتمتع بأبعاد المجتمع القومي وبالتقافة القومية والسياسة القومية.

ب. الهويّة القبليّة: هي ذات أبعاد المجتمع القبلي (العشائري) والثقافة القبليّة والسياسة القبليّة.

ج. الهويّة الطائفية: تتمثل في الأبعاد الأربعة: الثقافية والاجتماعية والدينية والمعاملاتية.

د. الهويّة الحديثة: تؤمن بالقيم الأساسية المعاصرة في البعد الاجتماعي والمعرفي، وتميل إلى النموذج الغربي والهويّة العالمية أو الدولية.

بناءً على ما تم ذكره، يتبين أن الثقافة في التعريف الإيراني هي المسؤولة عن إضفاء الهويّة على المجتمع، بحيث إذا عجز الفرد أو الجماعة أو الأسر عن إدراك هذه الهويّة، ولم يفلحوا في زرعها في الأجيال اللاحقة وتصديرها إلى الآخر الأجنبي، فإن هذا المجتمع محكوم عليه بالزوال والخضوع للثقافة الدخيلة «المهاجمة». إذن يمكن القول إنه بانتقال الثقافة تنتقل أيضاً الهويّة الوطنية وعناصرها. واللغة الفارسية تُعدّ أهمّ وسيلة لنقل الهويّة الإيرانية، وتبعاً لذلك تنتقل الثقافة الإيرانية ومكوّناتها وعناصرها المختلفة.

4- الثقافة والهويّة وعلاقتهما بفكرة تصدير الثورة:

عرّف مصطلح «تصدير الثورة» في أدبيات الأصوليين الإيرانيين على أنه تبيين لأفكار الثورة ونشرها عن طريق التوعية والمشاركة في تحرير الشعوب والمستضعفة من الاستبداد والغطرسة. إذاً «تصدير الثورة» يعني الترويج لخطاب الثورة المنطوي على نشر الوعي وتحرير الآخر. وهو الخطاب الذي سيصبح -حسب أصحابه- ملهماً لسائر الشعوب التواقّة إلى التحرر والتخلص من قبضة السلطوية والقمع. ونتيجة لهذا الوعي تصبح هذه

الشعوب قادرة على تطبيق مقتضيات هذا الخطاب الذي سيؤهلها لاحقاً للتحرر من ربة سلطة الاستبداد والقهر. ويُقصد بـ«تصدير الثورة» في الاصطلاح السياسي «تنفيذ برامج وسياسات من طرف مؤسسي الثورة بغاية التأثير على المجتمعات الأخرى»⁽¹⁷⁾. والهدف من وراء ذلك هو نقل قيم ومبادئ الثورة إلى المحيط الخارجي، وبالأخص إلى المجتمعات الإسلامية، عن طريق ربط قنوات التواصل بين قطاعات مختلفة من المجتمع الإيراني الثوري وفئات مختلفة من شعوب الدول المستهدفة.

هذا المفهوم لتصدير الثورة يتأسس على عقيدة جوهرية، مفادها أن الثورة في إيران هي أكثر من حدث تاريخي، وتتجاوز كونها ظاهرة سياسية اجتماعية، لتصل إلى أنها خطاب سياسي وثقافي، ما يعني أن الثورة في إيران هي مجموعة من الأحكام المنطقية المترابطة، ونظام ذو معنى ودلالة يشرع لنظم سياسية واجتماعية وسلوكيات خاصة⁽¹⁸⁾، لأنها ليست حدثاً تاريخياً انتهى سنة 1979م، بل هي حزمة من المثل والقيم والقناعات والمفاهيم والمقولات والمعاني التي تخللت الحياة السياسية والاجتماعية، وأنتجت سلوكيات ورؤى سياسية اجتماعية وتعيد إنتاج أخرى⁽¹⁹⁾.

إن فكرة تصدير الثقافة والثورة الإيرانيين تأسست على رؤى وتصورات تفسر الدين على أنه ملازم للسياسة، داخلياً وخارجياً. والهوية متلازمة مع اللغة الوطنية (الفرسية). في بداية عهد الثورة، وبسبب الخلط بين الخطاب الديني والخطاب الثوري والخطاب القومي، حصل جدل حول مفهوم «تصدير الثورة» وطرح إزاءه آراء متناقضة. فبحسب المقتضيات الطاوية في المقاربات الدينية فإنها كانت تجيز نشر وإبلاغ نوع من الدعاية للثورة، أما العلاقات والمنطق الكامن في الفضاء والتوجهات الراديكالية الثورية فكان يرى في «تصدير الثورة والثقافة الإيرانية الإسلامية» واجباً وضرورة استراتيجية. ومن جهة أخرى كانت للأصوات المنادية بضرورة التشبث بالهوية والقومية الإيرانية مكانتها المستحقة. وجميع هذه التيارات كانت تلتقي وتتوحد في اعتبار «اللغة الفارسية» مكوناً رئيسياً للهوية الإيرانية، يتعين تعهدها وتقويتها ونشرها على أوسع نطاق.

ثانياً: ثقافة الثورة وأثرها على اللغة الفارسية

كل لغة، مهما كانت، هي ذات صلة وطيدة وعميقة بثقافة البلاد والأمة التي تمثلها، بحيث إن حدث أي تغيير في ثقافة هذه الأمة يستتبع حدوث تغييرات أساسية وعميقة في لغتها. والمثال الواضح على هذا القول حلول الثقافة العربية الإسلامية محل الثقافة الإيرانية الزردشتية في مرحلة الفتح الإسلامي لإيران⁽²⁰⁾. وفي العصر الحديث الاستبدال بالثقافة

الإيرانية المشبعة بالتأثيرات الغربية إبان حكم الملكية بهلوية، ثقافةً دينيةً شيعيةً ثوريةً مع مجيء الثورة الإيرانية، مما انعكس أيضاً على اللغة الفارسية التي شهدت تغييراً، من حيث المفاهيم والمفردات، منذ العهد بهلوي إلى العهد الخميني وما بعده. وستتم الإشارة إلى هذه النقطة ضمن محور أثر الثورة في اللغة الفارسية في هذا البحث.

1- تأثير ثقافة الثورة على اللغة الفارسية:

إنَّ تلقين الثقافة ونقلها إلى الأجنبي كان من المباحث المثيرة للجدل في نهايات القرن التاسع عشر للميلاد، إلى جانب تعليم اللغة. وعلى الرغم من أن تعليم الثقافة، بصورة مستقلة، كان رائجاً في عقد الستينيات من القرن المنصرم، فإنَّ اقتران تعليم الثقافة بتعليم اللغة وارتباط هذين العنصرين بعضهما ببعض لم يحصل إلا خلال عقد التسعينيات. لذلك انصبَّ الاهتمام في هذه الفترة على مصطلح التعليم بين الثقافات (Learning intercultural). تم الانتباه إلى ضرورة التركيز على بُعد الثقافة في عملية تعليم اللغة الفارسية للناطقين غيرها خلال عقد التسعينيات. ويشير الدكتور قهرمان سليماني، رئيس تحرير فصلية «نامه بارسي» إلى هذا المعطى في قوله: «لكي يكون لأي ثقافة دور في التحولات الدولية، تحتاج إلى تقديم نفسها إلى آليات للتواصل، وليس هناك وسيلة أهم من اللغة الوطنية...»⁽²¹⁾.

يتبلور العامل الثقافي في تعليم اللغة في ثلاثة أبعاد، كما يشير إلى ذلك ريسجر (Risager)⁽²²⁾: بعد المحتوى، وبعد السياق، وبعد الشعر، بالنسبة إلى اللغة الفارسية، تم تركيز الاهتمام أكثر على بُعد المحتوى الثقافي الديني (أكثر كتب تعليم اللغة الفارسية الراجعة ركزت على الأبعاد الثقافية والمذهبية) ثم على البُعد الشعري بالنظر إلى ثراء الأدب الفارسي وغناه.

أحد أهم الكتب التي أُلِّفت في إيران حول موضوع الثقافة وتعليم اللغة الفارسية، كتاب «دراسة دور تعليم اللغة الفارسية في تبيين الثقافة الإيرانية الإسلامية» لحميد محمد خاني (1999م). وعدَّ الكاتب أن الثقافة الإيرانية هي «رسالة» يمكن تمريرها عن طريق اللغة الفارسية. واللغة في هذه الحالة تتقمص دور الوسيط، فهو يحدّد أربعة عناصر لنقل الرسالة إلى المخاطب، تتمثل في المرسل والمتلقي ووسيلة نقل الرسالة والهدف من إرسالها. ويستفيض في شرح هذه العناصر في باقي صفحات الكتاب.

وذهب الكاتبان نجاد معصوم ونادر حقاني إلى أبعد من ذلك، حينما جعلوا من عنصر الثقافة المهارة الخامسة التي يركز عليها تعليم أي لغة، بعد المهارات الأربع المعروفة⁽²³⁾. ولتحديد العلاقة بين اللغة والثقافة طرحت ثلاث رؤى، الرؤية الأولى: تذهب إلى أن

اللغة هي جزء من الثقافة تُبرز بوضوح علاقة الأفراد بالثقافة المشتركة. ووفق هذه الرؤية فإن عناصر الثقافة (الرؤية، الأسرة، الاقتصاد، وغير ذلك) تُعدّ عناصر أصلية في هذا الارتباط، ولا وجود للثقافة من دونها. وبحسب هذه الرؤية فإن اللغة تُعدّ أكثر من جزء مكوّن للثقافة. الرؤية الثانية: ترى أن اللغة والثقافة شيئان مستقلّان، لكنها مع ذلك تؤكد على أن اللغة تبقى مرتبطة بعناصر الثقافة الخالصة وحتى بالعناصر المتغيرة. أما الرؤية الثالثة فإنها تؤكد على وجود ارتباط نسبي بين اللغة وعناصر من الثقافة.

اللغة بوصفها وسيلة للتعبير عن الأفكار، هي جزء لا يتجزأ من الميراث المكتوب والشفهي لأيّ أمة. والأدب أيضًا يُعدّ جزءًا مهمًا من الثقافة والهوية القومية، بحيث يمكن نقل جزء مهم من هوية أيّ أمة عن طريق اللغة، لأنّ اللغة، فضلًا عن دورها التواصلي مجتمعيًا، هي من العوامل الرئيسية في إنتاج الثقافة والفكر. والبعض يعدّ اللغة وسيلة للتفكير وصنع الرؤى وخلق الهوية الاجتماعية وتشكيل العلاقات الصغرى والكبرى داخل المجتمع وربطها بالماضي والحاضر والمستقبل⁽²⁴⁾.

2- هيمنة اللغة الفارسية واستهداف اللغات والثقافات المحيطة:

إنّ إيران دولة ذات قوميات وعرقيات وثقافات متعددة تشكّل في مجموعها جسم الأمة الإيرانية. ولكل قومية ثقافتها ولغتها أو لهجتها الخاصة، والتقارب الكبير الذي بين هذه اللهجات لم ينفِ وجود اختلاف وتباين في ما بينها. وضياع لغة أو لهجة يستتبع، بصورة آلية، اندثار تاريخ وثقافة العشيرة أو القبيلة التي تتحدث بتلك اللغة، وجزء كبير من حياتها، وأيضًا ضياع رأسمالها اللامادي.

وفي ظلّ التحولات السريعة التي عاشتها إيران منذ العهد الملكي إلى يومنا هذا، والتي شملت كل الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لم تسلم اللغات واللهجات أيضًا من تداعيات هذه التقلبات وآثارها، وعلى رأسها اللغة الفارسية التي خضعت بدورها لهذه الحركة، لكنها حافظت مع ذلك على هويتها كُلفة قومية ورسمية وعلمية ودينية للإيرانيين بشكل عام. وقد كان وراء ذلك السياسة اللغوية المنتهجة منذ عهد الملكية في إيران، ولكن على وجه الخصوص في عهد الجمهورية الإيرانية حيث برزت بشكل أكثر منهجية. قوام هذه السياسة اللغوية تمكين اللغة الفارسية الرسمية بلهجتها الطهرانية من بسط هيمنتها ونفوذها على سائر اللغات المحلية وباقي اللهجات الإيرانية الأخرى من قبيل اللغات الكردية والعربية والتركية الأذرية والبلوشية، واللهجات اللورية والبختيارية والكيلكية والمازندرانية والطبرية والطالشية والجرجانية... وكان يدعم هذا التوجه الخلفية الحضارية والتاريخية

والأدبية التي تتمتع بها اللغة الفارسية، دون أن نغفل البُعد القومي الفارسي القوي الذي يُوَطر هذه اللغة ويجعلها متميزة عن لغات القوميات الإيرانية الأخرى، مما أفسح المجال لهيمنة اللغة الفارسية الرسمية على الأوساط العلمية والإعلامية، وكنيجة طبيعية لذلك ضعف اللغات الإيرانية الأخرى وانصهار ثقافتها، بالتدرج، في الثقافة الغالبة وقلة عدد المتحدثين باللغات المحلية، مما سيؤدي إلى ضياع لغات الأقليات الضعيفة وقليلة الأهمية. إنَّ هناك عوامل كثيرة تتهدد اللغات واللهجات المحلية في إيران، والتي كانت لغات رئيسية للأقوام الإيرانية وتحتوي على جزء مُهمّ من ثقافة وهويّة تلك الأقوام وتعكس العادات والتقاليد والآداب والقيم والمعتقدات، وفي الآن نفسه هي وعاء لنقل القيم والمعتقدات من جيل إلى جيل. وكل هذه اللغات لها جذور حضارية ضاربة في القدم، وفضلاً عن القيم الاجتماعية والثقافية التي تنطوي عليها، فهي لها صلات تاريخية باللغة الفارسية الأم وتضمّ ميراثاً قيماً من المفردات الأصيلة من شأنها المساعدة في الدراسات التاريخية والايتمولوجية (علم تاريخ الألفاظ) للغة الفارسية. لذلك فإنَّ أيّ محاولة لتضعيف هذه اللغات واللهجات سيفضي إلى تضعيف اللغة الوطنية وضرب الوحدة والتضامن وتقويض أسس مكونات الشعب الإيراني.

أشارت بعض الدراسات الميدانية لباحثين اجتماعيين، التي انصبّت على اللغات واللهجات المحلية في إيران خلال العقدين الأخيرين، إلى وجود إهمال ينمّ عن سياسة ممنهجة تهدف إلى تضعيف هذه اللغات على حساب اللغة الفارسية الرسمية، وتبين معالم هذه السياسة في تحجيم دور هذه اللغات في العمليات التعليمية والتربوية والتضييق عليها وعدم السماح بنشرها وتعليمها وإغلاق أبواب القنوات الرسمية في وجهها⁽²⁵⁾. وهذه السياسة تزداد قمعاً وقسوة تجاه لغات بعينها، لما لها من حساسيات مفرطة تتصل بالبُعد التاريخي والحضاري والسياسي، وبالتأكيد على رأس هذه اللغات التي تعاني من سياسة قمعية متصاعدة تترعب اللغة العربية ثم اللغة الكردية. وتتضح هذه السياسة بصورة بارزة في التوجهات والتدابير الآتية:

أ. ترويج استعمال اللغة الفارسية ونشرها في المناطق والمواقع التي فيها أكثرية ساحقة من قوميات أخرى غير فارسية.

ب. تكريس اللغة الفارسية كلغة رسمية (ووحيدة) في الدوائر والمؤسسات العامة والخاصة وفي كل مناحي الحياة، وفي وسائل الإعلام بجميع تلاوينها، وفي المقابل تضييق المجال أمام اللغات واللهجات الأخرى وإغلاق أبواب الذبوع والانتشار في وجهها.

ج. عدم السماح باستعمال اللغات واللهجات المحلية بوصفها من اللغات الأم، كوسائط للتعليم، خصوصاً في المدارس والمعاهد والمؤسسات الجامعية وغيرها، وحصر مجال تداول هذه اللغات واللهجات في كنف الأسرة فقط. وذلك بعكس المواثيق والمقررات الدولية، وحتى الدستور الإيراني الذي ينص على حق المواطن في استعمال اللغة المحلية بوصفها لغته الأم، في محيطه وبيئته وتلقي التعليم بها⁽²⁶⁾.

د. عدم تشجيع القيام بدراسات علمية وبحوث عن اللهجات الإيرانية بما يقوي وجودها وينتقل بها إلى مجال الأدب الرسمي، وحصر هذه الجهود على اللغة الفارسية الرسمية فقط. هـ. غياب برنامج وتخطيط واضحين -وهو يعكس غياب الإرادة السياسية- من أجل تقوية إمكانيات وقابليات اللغات واللهجات المحلية والنهوض بها.

3- تثوير الفارسية وتحول مدلولاتها بعد الثورة:

اللغة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، مرآة تنعكس فيها التغيرات والتطورات التي تطرأ على أي مجتمع على مستوى المؤسسات والبنى والقيم الاجتماعية، ولأن اللغة كائن مرتبط ببيئته فهي تتغير وتتحوّل تبعاً للتحوّلات التي تحدث في المجتمع الذي تعيش فيه. وبناءً عليه فإن التحوّل الذي يلحق باللغة يكون متناغماً مع التحوّلات الاجتماعية ومتساوفاً معها، والتغييرات التي تحدث في المجتمع تكون هي الأخرى منوطة بالتغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية... وبالنظر إلى أن الثورة في إيران أحدثت تغييراً جذرياً وعميقاً شمل كل مستويات المجتمع، فإن هذه التغييرات انعكست أيضاً على اللغة الفارسية التي شهدت تغييرات واسعة. وسنكتفي في هذا الصدد بالإشارة إلى مستوى المفردات والمعجم اللغوي الذي تتضح فيه آثار التغييرات التي أحدثتها الثورة، لارتباطه أولاً بصورة مباشرة بالثقافة والمجتمع، ولتحوّله ثانياً بشكل أسرع من باقي المستويات وعكسه للتحوّلات الاجتماعية.

صور هذا التحوّل متعدّدة، تبرز في طرح وحذف معجم فارسيّ مهمّ يتعلق بالنظام الملكي الحاكم في السابق وبقيمه وثقافته، وهذا التحوّل ظهر في تغيير معنى بعض الكلمات دون حذفها، واستدعى إيجاد مصطلحات ومفردات جديدة لم تكن متداولة في الفارسية السابقة (الشاهنشاهية) أملت الحاجة إلى التعبير عن متطلبات جديدة.

ولأن الثورة أحدثت تغييراً جذرياً في ثلاثة جوانب هي: جانب القيم، والجانب الاجتماعي، وجانب المؤسسات، فيمكن الإشارة إلى أبعاد التغييرات الثلاثة التي أحدثتها الثورة في هذه الجوانب، ثم التركيز على بعض التغييرات على الكلمات والمفردات كشواهد على التغيير في كل بُعد. وهذه الأبعاد عبارة عن العناصر الآتية:

أ. تغيير القيم: هو بلا شك أهمُّ بعد يتجلى فيه التغيير الذي أحدثته الثورة الإيرانية، وهذا ما يصرِّح به منظرو وقادة الثورة: «ثورتنا ثورة قيم» (الشهيد بهشتي)، لأن المجتمع الإيراني قبل الثورة كانت تسوده قيم وثقافة معينة، وجاءت الثورة لتقلب هذه الثقافة وتغيّر القيم السائدة قبلها. والتغييرات التي لحقت باللغة الفارسية في إطار تغيّر القيم برزت إما في شكل السموّ بدلالة كلمة وإما الانحطاط بها وإما توسيع مدلولها وإما تخصيصه. وكمثال على ذلك نستشهد بكلمة «روشن فكر» [المستتير]، التي كانت لها دلالة إيجابية في العصر الملكي، إذ كانت تطلق على الشخص المثقف والمتنوّر بالعلوم الجديدة، لكن بعد الثورة وبسبب ذمّ ثقافة الاستغراب واستقباح كل القيم الواردة من الغرب، مثلما جاء على لسان الخميني في أكثر من مناسبة، تنزّل مدلول هذه الكلمة وصار مذمومًا، إذ باتت تطلق على الشخص المستغرب المسلوب الهويّة والمتأثر بثقافة الغرب.

مثال آخر يتعلق بالمصطلحات ذات الخلفية الأيديولوجية والمدارس الفكرية الغربية والشرقية التي كانت تتمتع بمكانة متميزة زمن الشاه، وعرفت أيضًا تنزّلًا في مدلولها إذ باتت ذات حمولة دلالية سلبية، كمصطلحات «كابتاليسم» [الرأسمالية]، «سوسياლისم» [الاشتراكية]، «كومونيسم» [الشيوعية]، «لينينيسم» [اللينينية]، «ماركسيسم» [الماركسية]، «ماترياليسم» [المادية]، ومصطلحات أخرى من هذا القبيل.

وتبعًا للتغيير العميق في القيم كنتيجة حتمية للثورة، قفزت إلى واجهة الاستخدام والتداول اليومي كلمات مذهبية كثيرة لم يكن لها وجود في اللغة المعيار في عهد الملكية في إيران، وباتت في دائرة اللغة المعيارية، أي لغة الصحافة ووسائل الإعلام، وبالتالي سمّت منزلة هذه المفردات. نمثل على هذا المعجم الكبير ب: امامت، ولايت، ولايت فقيه، جهاد، نهضت، شهادت، ايثار، امر به معروف ونهي از منكر، حكومت إسلامي، شرع إسلام، قانون الهي...

ب. التغيير البنوي: تغيير البناء الاجتماعي الموجود كمؤشر على التحول الثوري، عرفت إزاءه اللغة الفارسية تحولًا أيضًا، إذ ارتفع المنسوب المضموني والقيمة الدلالية لمفردات من قبيل «سازندكي» [البناء]، «توليد» [الإنتاج]، «روستا» [القرية]، «محروميت زدائي» [محرارية التهميش]، نتيجة لمحورية العالم القروي وقطاع الفلاحة وتربية المواشي والإنتاج المحلي في عهد الثورة الإيرانية، عكس ما كان في عصر الشاه، حيث كان الاهتمام منصبًا على العالم الحضري وكان الاقتصاد الإيراني مستندًا على الخارج، فظهرت مؤسسات اجتماعية واقتصادية جديدة دعت إلى إنتاج كمّ من الكلمات والمفاهيم الجديدة، من هذه

المؤسسات نذكر: جهاد سازندكى [جهاد البناء]، كميته ى امداد [لجنة الإغاثة]، خدمات كشاورزى وتعاونى ها [خدمات الفلاحة والتعاونيات]، بنياد شهيد [مؤسسة الشهيد]، بنياد مستضعفان وجانبازان [مؤسسة المستضعفين والمعلولين]، بنياد مسكن [مؤسسة السكنى]...

ج. تغيير المؤسسات: ويقصد بذلك بعض التغييرات التي حدثت على مستوى المؤسسات السياسية، وهكذا فالتحول المؤسساتي قد يشتمل على أنواع متفاوتة من التغييرات، من قبيل تغيير النظام الملكي ونسخه، وتأسيس مجلس جديد للتشريع وإسقاط آخر مع تغيير جذري في الوظائف الخاصة بالسلطة التشريعية. إن تغيير ومحو المفردات الفارسية التي انتفى مدلولها ومصداقها في إيران لدليل على التغييرات الأساسية في المؤسسات السياسية. ويمكن التمثيل على هذه المفردات والتركيبات بما يلي: سلطنت، نظام شاهنشاهي، شاه، أعلى حضرت [صاحب الجلالة]، وليعهد، همايوني [السلطاني]، شاه بانو [الملكة، السلطانة]، وزارت تشريفات [وزارة المراسم]، وزارت دربار [وزارة البلاط]، مجلس سنا [مجلس الشيوخ]، مجلس شورای ملی [مجلس الشورى القومي]، انجمنهای ایالتی وولایتی [الجمعيات الأهلية]، بانک شاهنشاهی [البنك الملكي]، بنياد فرح [مؤسسة فرح]... وغيرها كثير.

بعض هذه المصطلحات عرف تغييراً طفيفاً في البنية الصرفية، أما مدلولها فبقي كما كان في السابق، مثل استعمال «مجلس شورای إسلامی» عوض «مجلس شورای ملی»، «وزارت دفاع» عوض «وزارت جنك» [وزارة الحرب]، «شوراهای إسلامی» [المجالس الإسلامية] عوض «انجمنهای ایالتی وولایتی»، «نهضت سواد آموزی» [نهضة محو الأمية] عوض «كميته ى ملي بيكار با بى سوادى» [اللجنة الوطنية لمحاربة الأمية]... لكن هناك مصطلحات وكلمات استحدثت في اللغة الفارسية للتعبير والدلالة عن الدوائر والمؤسسات الحكومية الجديدة التي أسست في ظل النظام الجديد، من ذلك: انقلاب إسلامی [الثورة الإسلامية]، ولايت فقيه [ولاية الفقيه]، جمهورى إسلامی [الجمهورية الإسلامية]، مقام رهبرى [مقام القيادة]، خدمت كزار شورا [الخادم]، شورای انقلاب [مجلس الثورة] شورای نكهبان [مجلس صيانة الدستور]، مجلس خبركان [مجلس الخبراء]، مجمع تشخيص مصلحت نظام [مجمع تشخيص مصلحة النظام]، نمايندكى ولى فقيه [ممثلية ولى الفقيه]، سازمان تبليغات إسلامی [مؤسسة التبليغ الإسلامي]، كميته ى انقلاب إسلامی [لجنة الثورة الإسلامية]، سپاه پاسداران انقلاب إسلامی [جيش الحرس الثوري]، بسيج [قوات التعبئة]،

دادكاه انقلاب إسلامي [محكمة الثورة الإسلامية]... وكلمة «امام» التي عرفت قدسية خاصة في الاستعمال الثوري، فضلاً عن العشرات من الكلمات والمصطلحات الأخرى التي لا يتسع المجال لذكرها جميعاً.

ثالثاً: اللغة وتصدير الثقافة والثورة في إيران.. الآليات والإجراءات

تحتل اللغة الفارسية مكانة مَهْمَةً بالنسبة إلى الإيرانيين بوصفها مجالاً للفخر والشعور بالتميز والتفرد، وقد لعبت الفارسية دوراً مركزياً في تصدير ثقافة وثورة إيران. ويمكن أن نشير إلى ذلك من خلال ما يأتي:

1- الفارسية كآلية لنشر الثقافة الإيرانية:

يقول أحد أكبر أساتذة اللغة الفارسية في إيران، الدكتور برويز ناتل خانلري⁽²⁷⁾، عن اللغة الفارسية: «أفتخر باللغة الفارسية وأعتز بها لأنها تمثل ذاتي ولغة قومي. اللغة التي تذوق حلاوتها العدو قبل الصديق والبعيد قبل القريب. اللغة التي أنشد بها سعدي غزلياته... ليس الوطن بالنسبة إلي كما تتصورون، وطني لا يُحدِّد هذه الحدود الأربعة؛ حيثما وجدت الثقافة الإيرانية فهناك وطني، لأن هناك تجد روعي وذائقتي معارفهما. لا أقول إنَّ الثقافة هي اللغة، لكن اللغة جزء من الثقافة، بل جزء كبير...»⁽²⁸⁾.

واللغة الفارسية في نظر حق شناس، أستاذ اللسانيات الفارسية، لا تمثل واقعاً قومياً ولا موقعاً جغرافياً، إنما تمثل واقعاً ثقافياً وتاريخياً، بمعنى أن جميع القوميات الإيرانية تتواصل بواسطة هذه اللغة في فضاء ثقافة واحدة وعلى خلفية تاريخ واحد ومصير مشترك، وتؤسس نتيجة لذلك أمة واحدة... هذا الأصل الثقافي-التاريخي للغة الفارسية حررها، على الدوام، من كل قيد أو حدٍّ جغرافي⁽²⁹⁾.

مجموع هذه الخصوصيات تجعل من اللغة الفارسية صوت الثورة الواحد الموحد: «هذه اللغة، هي لسان الثورة المُعَبَّر، وثقتُ بإتقان أمجاد الثورة ومزالقها، ودافعت باستماتة عن فكر الثورة وأفكارها، وهذه اللغة هي من سينقل إرث الثورة المجيدة للأجيال القادمة»⁽³⁰⁾.

ولمرتضى مطهري⁽³¹⁾ قوله مشهودة في اللغة الفارسية تبرز ولهه الشديد بها، إذ يقول: «في بعض الثقافات تؤدي اللغة دوراً أعظم من دور الدين أو المجتمع في الحفاظ على تلك الثقافة واستمراريتها. وهذا الأمر يصدق على الثقافة الإيرانية»⁽³²⁾. وفي موضع آخر من كتابه يشير إلى علاقة اللغة الفارسية بالثقافة الإسلامية قائلاً: «لوضاعت اللغة الفارسية لما توفّرنا اليوم على كنوز الآثار التي تحوي بين دفتيها المفاهيم الإسلامية والقرآنية وتربط

اللغة الفارسية بالإسلام بوثق متين وخالد، من مثل كتاب (المثنوي المعنوي) و(كلستان) و(ديوان حافظ) و(نظامي الكنجوي) ومئات الروائع الأخرى⁽³³⁾.

لتبيين دور اللغة الفارسية في تصدير الثقافة الإيرانية، لا بد من شرح العلاقة بينهما، فالثقافة الفارسية -كما أسلفنا- هي رسالة يتوجب نقلها عبر إفراغها في قالب اللغة الفارسية التي تقوم بدور الوسيط والأداة الناقلة. وتتطلب العملية توفر العناصر الأربعة التالية: المرسل / وسيلة نقل الرسالة / الهدف من إرسال الرسالة / المرسل إليه.

فالرسالة في الحالة الإيرانية الراهنة هي الثقافة الإيرانية ذات الخلفية الشيعية، التي تمتد جذورها القديمة إلى عهد إيران الزردشتية، كما يصرح بذلك العلامة مرتضى مطهري حينما يقول: «إنَّ الإيرانيين قدّموا للإسلام بقايا الحضارة الإيرانية القديمة بعدما قاموا بتلطيفها وصلّوها»⁽³⁴⁾.

فثقافة كل أمة بمثابة مرآة تعكس الأفكار والمعتقدات والأخلاق والآداب والقيم والعادات والتقاليد والتحوّلات الفكرية والاجتماعية خلال فترات زمنية طويلة.

يقول الباحث محمد حميد خاني مبيناً جذور الثقافة الإيرانية التي يتم تصديرها: «نحن لم نحصل هذه الثقافة وتلك القيم ببساطة، نحن مدينون لنبيّ الإسلام ولعليّ وللأئمة المعصومين الذين كافحوا طيلة حياتهم في سبيل هذه الثقافة الإسلامية الإيرانية. واليوم، الثقافة الإيرانية وإيران الإسلامية تدين للإمام [يقصد الخميني] الذي أعلى، بمجاهداته منقطعة النظير، إسلام إيران والجمهورية الإسلامية في العالم، وهو يُعدّ، بحق، محيي الدين المحمدي الخالص، وندين أيضاً للمرشد المعظم...»⁽³⁵⁾.

إنَّ إيران تتمتع بإمكانيات ثقافية متنوعة ومتعدّدة، وكل واحدة منها يمكنها أن تكون بمثابة دافع للأجنبي وحافز له لتعلّم اللغة الفارسية. فعلى سبيل المثال، تاريخ الحضارة الإيرانية القديمة يشكّل نقطة جذب للناطقين بغير الفارسية كي يُقبلوا على تعلّمها. والدوائر الرسمية في إيران، وعياً منها بهذا المعطى، توجّه مراكز تعليم اللغة الفارسية للأجانب بإدراج برامج لفائدة الطلبة الأجانب تتوخى تنظيم زيارات سياحية استكشافية للمعالم الأثرية التاريخية، ضمن برامجها التعليمية، لكن في واقع الأمر يتم التركيز في هذه الزيارات على زيارة الأماكن المذهبية، من حوزات علمية ومراقد لأئمة الشيعة وأحفادهم وشخصيات مذهبية وتكايا وغيرها، على اعتبار أنها آثار سياحية تهمّ الأجنبي. وهي بذلك تحاول، من خلال هذه الزيارات، لفت انتباه المتعلمين الأجانب إلى الثقافة الدينية الشيعية أملاً في استدراجهم واستقطابهم إلى المذهب الشيعي. على سبيل المثال، بالرجوع إلى سلسلة «رحلة

مع الفارسية»⁽³⁶⁾، وهي سلسلة دروس لتعليم اللغة الفارسية موجّهة إلى العرب، كُتبت ثم صُوّرت تلفازياً وعُرِضت على قنوات إيرانية ناطقة باللغة العربية، نجد محتوى الدروس، فضلاً عن عناصر ثقافية إيرانية أخرى، يتضمن ثقافة دينية شيعية، مثل زيارة الأضرحة والمراقدة الخاصة بالأئمة وإقامة مجالس العزاء والمآتم في المناسبات المذهبية المعروفة (الدرس رقم 24)، ويتم أيضاً تضمين هذه الدروس أحداثاً تاريخية تخصّ الإيرانيين، كالإشارة إلى الحرب الإيرانية العراقية المحمّلة بحمولة مذهبية (درس الشهيد المجهول، رقم 32). ومما ورد في مقدمة هذه السلسلة الحديث عن دوافع إنجاز هذا العمل، وفيه يؤكد المؤلف على البُعد الثوري، قائلاً: «لا بدّ أن نضيف إلى الأسباب التي ذكرناها أن الدور الحضاري والتقدمي الهامّ للإيرانيين على الساحة العالمية والإقليمية، وخصوصاً بعد انتصار الثورة الإسلامية العظيمة، يشدّ وبشكل هائل انتباه العالم، وخصوصاً العالم الإسلامي، إلى إيران كنموذج مثاليّ من حيث الاستقلال والحرية والتطوّر ووقوفها الصامد بوجه القوى المتغطّسة...». نفس التيمة نجدها مطروحة في كتب أخرى لتعليم اللغة الفارسية للأجانب، أقصد تضمين معتقدات شيعية وثورية في دروس تعليمية، يفترض أنها خاصة باللغة. من بين هذه الكتب أكتفي بالإشارة إلى كتاب «اللغة الفارسية» لأحمد صفار مقدّم، إذ تختص نصوص بعض الدروس برموز مذهبية شيعية (الدرس العاشر: مرقد الإمام صالح). وكتاب «تعليم اللغة الفارسية من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة المتقدمة» لمهدي ضرغاميان، إذ نجد حمولة مذهبية مكثفة في دروس هذا الكتاب (الذكريات المذهبية- العزاء في إيران- المدن المذهبية- محرم ومجالس التعزية...) ⁽³⁷⁾.

الأدب أيضاً من عناصر الثقافة الإيرانية التي تجذب الأجنبي وتستثير ذائقته وأحاسيسه، لذلك يتم إقحام كتب تعليم اللغة الفارسية للأجانب بمحتوى أدبيّ متنوع، يشمل الشعر والنثر والقصة والمقالة وغيرها، وتقدم فيها نصوص شعرية ونثرية ذات مضامين دينية شيعية لشعراء شيعية وشعراء الثورة الإيرانية الذين يتغنّون بالثورة ومؤسسيها ومبادئها وآمالها. وأغلب الكتب التعليمية التي ألفت في إيران، إن لم أقلّ كلّها، تستثمر هذه التيمة الأدبية في تعليم اللغة للأجانب. علاوة على هذه التيمة تحظى موضوعات من قبيل الفن والسينما والعادات والتقاليد والفلكلور والأعياد والمناسبات الإيرانية بجانب مهّم من الاهتمام، باعتبارها عناصر ثقافية جذابة للناطقين بغير الفارسية ⁽³⁸⁾.

2- الفارسية كآلية لتصدير الثورة الإيرانية إلى الخارج:

بيّن علي خامنئي مكانة وأهمية اللغة الفارسية للنظام الإيراني، في كلمة ألقاها بحضور

أعضاء المجلس الأعلى للغة الفارسية في مؤسسة الإذاعة والتلفزيون في عام 1992م، وأقتطف من كلمته هذه العبارات المفصلية التالية: «أتصور أن رجالات النظام يدركون قدر اللغة الفارسية، والسبب أن إيران اليوم لديها رسالة تصدرها إلى العالم، وهذه الرسالة هي إسلامنا الثوري. نحن نمتلك رسالة للعالم تتطلب ناقلًا واحدًا ووحيدًا، ألا وهو اللغة الفارسية. حين أفكر في هذه الرسالة أجد أن هذه اللغة يجب أن تكون قادرة على حمل الكلمات والمصطلحات الخاصة بنا. المصطلحات الحبلية بالدلالة الثورية وبفكر النظام. لذا فإننا اليوم بحاجة إلى لغة فارسية قوية ومتينة وواسعة الانتشار، وهي بحوزتنا بفضل الله ومَنَّهُ»⁽³⁹⁾.

وكنتيجة عملية لهذه السياسة اللغوية فإن اللغة الفارسية شهدت في عصر الثورة نفاذ الفكر الثوري إليها، واستخدام المصطلحات والتعابير الجديدة المعبرة عن روح الثورة ورسالتها، واحتضان اللغة من طرف الدولة ودعمها.

إذًا، في ظل الثورة الإيرانية وصلت اللغة الفارسية إلى مراحل متطورة من الانفتاح نتيجة لحدوث تحولات أساسية في الشؤون الثقافية والسياسية والاجتماعية. وهكذا وانطلاقًا من القناعة المتأتية بعد قيام الثورة في كون اللغة الفارسية هي حاملة رسالة الثورة والمتضمنة لمفاهيمها، فقد طرأت على عملية تدريس اللغة الفارسية والمقررات الدراسية تحولات لافتة، وبُذلت جهود كبيرة لنشر اللغة الفارسية وتوسيعها. تجلّى هذا التوجه في التدابير الكثيرة المتخذة، وعلى رأسها تأسيس المجلس الأعلى للثورة الثقافية وإنشاء مؤسسة البحث والتخطيط التابعة لوزارة التربية والتعليم. ومُهَمَّة هذه الأخيرة تأليف ووضع الكتب والمقررات الدراسية، وقد أقدمت هذه المؤسسة، بالتعاون مع عديد من الخبراء، على إعادة تأليف وإنتاج الكتب والمقررات الدراسية، سواء منها الموجه إلى الداخل أو إلى الخارج، وذلك على أساس يتوافق مع الخلفية الأيديولوجية والمذهبية الجديدة والأهداف الثورية التي قامت عليها الجمهورية الإسلامية في إيران. وتأسيسًا على ذلك فقد تم حذف جميع المواد والمضامين الدراسية والتعليمية المرتبطة بمرحلة الحكم الملكي الشاهنشاهي من قريب أو بعيد، وأصبحت هذه الكتب مؤطرة بمرجعية الفكر الإيراني الجديد ومتضمنة لروحه⁽⁴⁰⁾.

ولتحقيق هذا الهدف تمت دراسة الآثار الأدبية القديمة دراسة دقيقة بغية تمييز الصالح منها للنشر والتبليغ بناءً على المعايير السالفة الذكر والتوجهات التي رسمها مؤسسو الثورة في إيران، وعلى رأسهم الخميني الذي وضع خارطة طريق تحدّدت معالمها في كلمته: «على

الكتّاب والمؤلفين الأُمّاء الذين قضوا سنوات من العزلة والقمع في ظل حكومة الاختناق والإرهاب أن يفتنوا، اليوم، الحرّية التي كان ثمنها دماء الشهداء الطاهرة، وألا يغفلوا القيم الإلهية...». وأيضاً كلمة علي خامنئي: «اللغة الفارسية نعمة إلهية... ولغة الثورة والدين والإسلام الثوري ومحبوبة الأُمم»⁽⁴¹⁾.

النتيجة أنه بعد استتباب الثورة باتت كل المؤسسات والإدارات المسؤولة، وعلى رأسها وزارة التعليم، تنظر إلى اللغة الفارسية بوصفها إرثاً غنياً يعكس ثراء الثقافة والحضارة الإيرانيّتين، ووعاءً يستوعب فكر الثورة ومبادئها وقيمها. وترى من أول واجباتها الحفاظ على هذه اللغة والعمل على نشرها وتبليغها⁽⁴²⁾.

لم تقتصر هذه الجهود على الداخل الإيراني فحسب، بل شملت أيضاً جهات في الخارج، إذ تحركت الدوائر المعنية بتطوير اللغة الفارسية ونشرها وترويج الثقافة والمفاهيم والقيم الثورية والمذهبية ومفاهيم أخرى بحمولة حضارية وعلمية وفنية وأدبية. وتحقّق ذلك عبر تهيئ كتب ومقررات تم قطع أي صلة بينها وبين النظام السياسي السابق وتشذيبها و«تطهيرها» من الأفكار والتيارات والمحتوى الثقافي الشاهنشاهي.

من التدابير الأخرى التي اتخذتها إيران للوصول إلى الهدف المرسوم توسيع بناء المدارس وتأسيس المراكز الثقافية الإيرانية في الخارج، إذ ارتفع عددها من 47 مدرسة ومركزاً سنة 1989م إلى أكثر من 120 مدرسة ومركزاً -بحسب آخر الأرقام- في أكثر من 109 مدن في العالم، هذا فضلاً عن وجود عشرات المراكز الثقافية في عواصم عالمية، وتعمل بصورة مستقلة عن الملحقيات الثقافية التابعة للسفارات. وأيضاً إيفاد الخبراء والمتخصصين في اللغة الفارسية والثقافة الإيرانية إلى هذه المراكز وتوزيع الكتب والوسائل التعليمية، دون أن تغفل تنظيم دورات لتعليم اللغة الفارسية ونشر الثقافة الإيرانية في كثير من مدن العالم، أذكر منها على سبيل المثال هامبورغ وفرانكفورت وميونخ ولندن وباريس واستكهولم وآياصوفيا وإيروان، إضافة إلى عواصم عربية وإسلامية كثيرة جداً. هذا علاوة على تقديم دروس تكوينية في اللغة الفارسية والثقافة الإيرانية الثورية لآلاف الأُجانب المقيمين بإيران، ونخص بالذكر اللاجئين الأفغان والعراقيين.

من الإجراءات الأخرى المؤثرة في تحقيق هذا المبتغى تأسيس دائرة خاصة في وزارة الخارجية تُعنى بنشر اللغة الفارسية والثقافة الإيرانية في الخارج، تحت اسم «مركز كسترش زبان فارسي» [مركز نشر اللغة الفارسية]. ونجح هذا المركز في تدشين ممثلات له في السفارات الإيرانية عبر العالم، وهو يعمل حالياً في أكثر من 130 تمثيلية على تقديم برامج

تعليمية وثقافية وأيضاً مذهبية للطلبة والباحثين وكل المهتمين من أبناء البلد المستضيف، وذلك عبر تقديم دورات تعليمية للغة الفارسية وإقامة معارض وأنشطة جانبية أخرى. في نفس السياق تجتهد المراكز الثقافية الإيرانية المعتمدة في الخارج، وباستقلال تام عن المراكز المذكورة، في تقديم خدمات مشابهة، وتشتمل أيضاً على تقديم مساعدات للجامعات والمراكز الثقافية التي تُدرّس بها اللغة الفارسية والحضارة الإيرانية في مختلف بلدان العالم، كإرسال الأساتذة الإيرانيين المتخصصين وتبادل إرسال الطلبة وتنظيم دورات تقوية في اللغة الفارسية خاصة بأساتذة اللغة الفارسية الأجانب. وتم أيضاً افتتاح مؤسسات أخرى تُعنى بنفس الأدوار مع تكثيف وتناسق وانسجام بينها، من ذلك مجلس لنشر اللغة الفارسية تابع لوزارة الثقافة والإرشاد الديني يؤدي الأهداف ذاتها. ومجمع اللغة الفارسية والمركز الدولي لتعليم اللغة الفارسية للأجانب التابع لجامعة طهران، الذي ينشط بفعالية في تعليم اللغة الفارسية للدبلوماسيين والتجار والسياح والطلبة الأجانب. كل هذه جهود وتدابير عملية اتخذتها الجمهورية الإيرانية بغية ترويج اللغة الفارسية وتسويق الثقافة الإيرانية وتصدير الثورة الإيرانية.

خاتمة

لأنّ اللغة الفارسية هي مكوّن رئيسي من مكوّنات الهوية الإيرانية واللغة الوطنية ولغة الثورة في إيران، وكانت باستمرار من الآليات المهمة لدى الحكومات المتعاقبة على إيران، فإنّ الاهتمام بتثبيت دعائم هذه اللغة داخلياً وتكريس دورها في نشر الثقافة وتعزيز الإشعاع الإيراني على المستوى الدولي، وترويج مبادئ الثورة وتصديرها إلى الخارج، حظي بالأولوية في السياسة الإيرانية، منذ أول حكومة في حياة الثورة إلى آخر حكومة. وإذا كانت هذه السياسة -برأينا- قد حققت نجاحات كبيرة على المستوى الخارجي بحيث صارت اللغة الفارسية تحتلّ من حيث الأهمية المرتبة الثانية في العالم الإسلامي بعد اللغة العربية، وباتت في العصر الحديث أكثر انفتاحاً على الغرب وتلقت كثيراً من مؤثراته، ومن جملة ذلك أسلوب اللغة الفارسية الذي غدا قريباً إلى أذواق العامة وأفهامهم بفعل احتكاكها باللغات الأوروبية وتجديد ذاتها وتخلصها من ميراث القرون الخالية، كما أصبح لها مراكز دراسات وجامعات ومدارس ومعاهد منتشرة في كل أصقاع العالم، مما انعكس بالإيجاب على إيران من نواح عديدة، لا سيّما من الناحية الثقافية والسياحية والحضارية... فإن نهج هذه السياسة على المستوى الداخلي قد ينطوي على أخطار قاتلة، لأن مسلسل تفريس الحياة العامة والاهتمام المتزايد بالفارسية في إيران والتمكين لها في بيئات أخرى، مقابل

تضييق الخناق على اللغات واللهجات الإيرانية المحلية، هو تهديد للتعایش السلمي بين هذه اللغات وبين القوميات والمكوّنات العرقية في إيران. وقد أدى هذا الأمر بالقوميات الإيرانية غير الفارسية إلى المطالبة بالحقوق اللغوية والثقافية المشروعة، لكن الأمر قد يتطوّر -إن لم تسارع إيران إلى سدّ هذه الثغرة- بتحوّل هذه المطالب من مطالبة بالحقوق الهوياتية والثقافية إلى المطالبة بالانفصال عن الدولة الأم لضمان هذه الحقوق المهضومة، ذلك أن أهمّ ميزة تميز الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً هي هويّته التي تعني الهوية الثقافية والدينية والجغرافية. وإنّ تجريد القوميات من هويّتها يؤدي إلى بث التفرقة الثقافية واللغوية، وبالتالي انهيار وتفكك الروابط الاجتماعية في المجتمع، ما يُعجّل بانتهائه. ناهيك بالمخاطر الأخرى التي تتطوي عليها فكرة تصدير الثورة إلى الخارج، وعلى رأسها إثارة القلاقل وبث الفوضى والفتن بين أفراد المجتمع الواحد، مما ينعكس سلباً على صورة إيران ويصنّفها في خانة الدول المارقة والشريرة.

قائمة المراجع والهوامش

- (1) كولد جوليبوس، كولب ويليام: معجم العلوم الاجتماعية، طهران: ط2، 2006، ص630-629.
- (2) الكك فيكتور: طرح تقويمي للحضارة والتمدن والثقافة، في فصلية إيران والعرب، بيروت: العددان 7-6، 2004، ص27.
- (3) ساروخاني باقر: مدخل إلى موسوعة العلوم الاجتماعية، في كيهان، طهران: 1997، ج12 ص175.
- (4) منصورى جواد: ثقافة الاستقلال، طهران: مكتب الدراسات السياسية والدولية التابعة لوزارة الخارجية، 1991 ج3 ص9.
- (5) فيصري نورا: أقال في الهوية وعادات المفكرين الإيرانيين، طهران: منشورات التمدن الإيراني، 1997، ص53.
- (6) داوري أردكاني: اللغة الفارسية وتمثيلات الهوية الوطنية الإيرانية، في الدراسات القومية، طهران: نكار، العدد 3، 2007، ص20.
- (7) الخميني روح الله الموسوي: صحيفة النور، طهران: مؤسسة تنظيم ونشر آثار آية الله الخميني، ج12 ص6.
- (8) الخميني روح الله الموسوي: صحيفة النور، طهران: مؤسسة تنظيم ونشر آثار آية الله الخميني، ج12 ص219.
- (9) شاعر إيراني معاصر وُلد عام 1928م في مدينة كاشان وتخرج عام 1953م في كلية الفنون الجميلة بطهران. نشأت رغبته في الرسم موازية لرغبته في الشعر، إذ كان بالإضافة إلى إصدار مجاميعه الشعرية يقيم معارض لرسمه في مختلف أنحاء طهران.
- (10) مطلع لمقطوعة شهيرة للشاعر سهراب سبهري، ومما جاء فيها:

من كاشان أنا

عصري ليس سيئاً

مهنتي الرسمُ

أصنع أحياناً قفصاً بالأصابع.. أبيعك لكم

ليُمتع قلبكم

بأغاني الشقائق المحبوسة فيه

- (11) مقتطفات من كلمة علي خامنئي التي ألقاها في لقائه بأعضاء المجلس الأعلى للثورة الثقافية في عام 2003.
- (12) رباني جعفر: الهوية الوطنية، طهران: مؤسسة جمعية الأطر والأولياء في إيران، 2002، ص88.
- (13) صنيع إجلال مريم: مدخل إلى الثقافة والهوية الإيرانية، طهران: منشورات التمدن الإيراني، 2005، ص105.
- (14) شاه نفي نجيمه: تحديد مرتكزات الهوية الوطنية ودراستها في كتب اللغة الفارسية، طهران: 2009، ص36.
- (15) فولر غراهام، فرانك رحيم: الشيعة العرب.. المسلمون المنسيون، ترجمة خديجة التبريزي، طهران وقم: 2005، ص171، 172.
- (16) لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة المقال الذي نشره الدكتور محمد جميع في جريدة القدس العربي بتاريخ 24 نونبر 2016، تحت عنوان «إيران: طائفة الدستور والممارسة».
- (17) سالار محمد: الثورة الإسلامية وتصدير القيم الثقافية في فكر الثورة الإسلامية، طهران: ربيع 2003، العدد 5.
- (18) ديفيد مارش: النظرية والمنهج في العلوم السياسية، ترجمه إلى الفارسية أمير محمد حاجي يوسف، طهران: مركز الدراسات الاستراتيجية، 1999، ص195-200.
- (19) Milliken, Jennifer: The study of Discourse, in international Relations, 2)5 1999, p230-229
- (20) مما لا شك فيه أن تأثير الثقافات بعضها في بعض، وخصوصاً الثقافة الغالبة على الثقافة المغلوبة، يؤدي على مرّ التاريخ إلى تغيرات عميقة وشاملة، لدرجة يمكن أن تحل ثقافة محل أخرى، أو تختلط إحداها بالأخرى، لتبرز ثقافة جديدة بمعالم مغايرة عن أصلها. وهذا الأمر هو الذي حدث بين الثقافتين العربية والفارسية. فعلى الرغم من أن إحداهما لم تلغ الأخرى، فإن طابع الثقافة العربية الإسلامية كان واضحاً على الثقافة الفارسية منذ الفتح الإسلامي لبلاد فارس إلى يوم الناس هذا.
- (21) سليمان قهرمان: الافتتاحية، في نامه بارسي، طهران: وزارة الثقافة، العدد 29، 2003، ص2.
- (22) Risager, Karen: Language culture Pedagogy, Toronto: Multilingual matters LTD, 2007.
- (23) معصوم نجاد وحقاني نادر: تعليم اللغة ومقولة الثقافة، في تطوّر تعليم اللغة، طهران: العدد 80، 2007، ص4.
- (24) همتي ماندانا: اللغة والهوية الثقافية، في الثقافة والمجتمع، طهران: العدد 1، 1998، ص15. مجتهد حسين: آليات قوية وراسخة للهوية الوطنية في إيران، في قسم التاريخ بجامعة أرومية.
- (25) زمرديان، ر: دليل تجميع اللهجات وتوصيفها، مشهد: جامعة الفردوسي، 2001، ص37.
- (26) أما الدستور الإيراني الراهن الذي تم إقراره عبر الاستفتاء الشعبي العام، وذلك في الأول من أبريل عام 1979م، فقد نص في بعض موادها ومنها المادة 3 والمادة 19 والمادة 20 على تأمين الحريات المشروعة وكذلك العدالة والمساواة ورفع التمييز بين أفراد المجتمع.
- (27) برويز نائل خانلري، أديب وسياسي ولغوي وكاتب وشاعر إيراني معاصر. اعتُقل بعد قيام الثورة، ثم اعتزل جميع فعالياته الرسمية والأكاديمية. توفي في عام 1990 عن سن يناهز 77 عاماً. من أشهر أعماله كتب: قواعد اللغة الفارسية، تاريخ اللغة الفارسية، المعجم التاريخي للغة الفارسية.

- (28) خانلري برويز: اللسانيات واللغة الفارسية، طهران: طوس، 2007، ص 175.
- (29) حق شناس علي محمد: اللغة الفارسية وآدابها بين التقليد والحداثة، طهران: 2003، ص 187.
- (30) همتي ماندانا: اللغة والهوية الثقافية في الثقافة والمجتمع، طهران: العدد 1، 1998، ص 20.
- (31) مرتضى مطهري، رجل دين وأستاذ الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام وتفسير القرآن بجامعة طهران، وعضو هيئة الاتحاد الإسلامي. يُعدّ من مؤسسي ومنظري نظام الجمهورية الإسلامية في إيران، عُيّن بعد الثورة رئيساً لمجلس الثورة. اغتيل في سنة 1979م. خلف عديداً من الكتب والمؤلفات، من بينها: الإسلام ومقتضى العصر، الإمامة والقيادة، مستقبل الثورة الإسلامية، الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران.
- (32) مطهري مرتضى: الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران، طهران: منشورات صدرا، 2000، ص 114.
- (33) مطهري مرتضى: نفسه، ص 375.
- (34) مطهري مرتضى: الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران، طهران: منشورات صدرا، 2000، ص 119.
- (35) خاني حميد محمد: دراسة دور تعليم اللغة الفارسية في تبين الثقافة الإيرانية الإسلامية، في تطوّر تعليم اللغة الفارسية، طهران: 1998، العدد 47، ص 46.
- (36) الدكتور مسعود فكري بالتعاون مع سيد علي أبو طالب: رحلة مع الفارسية، طهران: 2011م.
- (37) مقدم أحمد صفار: اللغة الفارسية، طهران: دائرة نشر اللغة الفارسية، مركز البحوث والدراسات في العلوم الإنسانية، 2013. ضرغاميان مهدي: تعليم اللغة الفارسية من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة المتقدمة، طهران: دائرة نشر اللغة الفارسية وآدابها، 2002.
- (38) قبادي حسين علي: تبين تحولات الشعر الفارسي بعد الثورة الإسلامية، في التحقيق، طهران: ربيع 2001، العدد الثاني، ص 40.
- (39) مقتطفات من كلمة علي خامنئي التي ألقاها في لقاءه بأعضاء المجلس الأعلى للثورة الثقافية في عام 2003.
- (40) رزمجو، حسن: الثورة والكتب المدرسية، في صوت النور، طهران: 1997م، ص 109-110.
- (41) مقتطف من كلمة مرشد الثورة ألقاها في افتتاح أول مؤتمر عن اللغة الفارسية في مؤسسة الإذاعة والتلفزيون الإيرانية، نقلاً عن مجلة سروش، السنة 17، 1995، العدد 770، ص 6.
- (42) من حوار أجري مع وزير التربية والتعليم الإيراني محمد علي نجفي، تحت عنوان «اللغة والأدب الفارسي ميراث كبير»، مجلة سروش، السنة 17، 1995، العدد 770، ص 12.